

تاريخ الثقافة المادية

جان - ماري بيساز(*)

في سنة 1919، خلال الحرب الأهلية، وقّع لينين (Lénine) قرار تأسيس أكاديمية التاريخ والثقافة المادية في الاتحاد السوفياتي. وقد برزت من خلال ذلك أهم الأحداث والمواصفات التي تعنى بمفهوم الثقافة المادية وارتباطها الواضح بالمادية التاريخية والأهمية التي يوليها الماركسيون لها، وبروزها في بلد اشتراكي وعلاقتها المميزة بالتاريخ. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الأكاديمية الجديدة قد حافظت على مهام هيئة آثار النظام القيصري مشيرة إلى أن المنهج الأثري هو أحسن السبل للوصول إلى تاريخ الثقافة المادية، فإننا ننهي ملامح المفهوم والبحوث المترتبة عليه.

يعتبر حدث الولادة الذي يمثله قرار لينين حدثاً متأخراً نسبياً. ويجب ألا نعجب لذلك: إنه يفسر بضرورة فترة نضج إيبستيمية

(*) ولد سنة 1929، مبرز في التاريخ ومدير أبحاث في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية، ومدير مساعد لمركز التاريخ والآثار الوسيطة في جامعة ليون الثانية. وهو ينشط فريق «أنثروبولوجيا القرى الوسيطة» ضمن متحف الفنون والتقاليد الشعبية. وهو عالم آثار، أشرف على العديد من الحفريات التي اهتمت بالقرى الوسيطة في منطقة بورغونيا (Bourgogne) وصفلية وبلاد اليونان.

طويلة ضمن هذا التجديد الرائع للفكر العلمي الذي ميّز النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ليست هناك فكرة جديدة غريبة عن ظهور الوضعية والعلموية اللتين طبعتا تيار الأفكار المجدّدة في ذلك الوقت.

لقد وجب خاصة انفلاق غلّ الآداب الجميلة الضيق الذي حصرت فيه الإنسانية دراسة الإنسان: كان يجب أن توضع أسس العلوم الإنسانية وعلم الاجتماع، وأخيراً الإثنولوجيا، كل ذلك من دون أن ننسى علوم الإنسان الطبيعية التي يقترحها داروين. لقد كان عمله الحاسم: أصول الأجناس (*On the Origin of Species*) سنة 1859، ولم يكن كونت في ذلك التاريخ قد اقترح بعد مصطلح «علم الاجتماع»، في حين كان مصطلح «المجتمع العتيق» الذي أتى به مورغان مؤرخاً بسنة 1877.

لا يمكن تصور ازدهار العلوم الإنسانية في أواخر القرن التاسع عشر خارج نظرية التطور. وينتمي إلى هذا التيار نفسه علم آثار جديد يعتبر تطوره مديناً كثيراً للموعي بالثقافة المادية، وهو علم آثار يأخذ بعين الاعتبار أولاً المظاهر المادية للحضارات، وعليها يبني تعريف الثقافات في حد ذاتها وتطورها بوصفها علم آثار ما قبل التاريخ. وقد نشر كتاب: إنسان ما قبل الطوفان لبوشيه دو بيرث (Boucher de Perthes) سنة 1860.

ولكي تخرج الثقافة المادية من مفهومي «الثقافة» و«الحضارة» وجب أخيراً تصوير «نموذج» لتطور المجتمعات البشرية التي لا تعتمد إلا على البنى التحتية، كما وجب طرح نظرية للتاريخ تعتمد التحليل المادي وتقحم في تصوراته أحداث ملموسة وقابلة للقياس: أي المادية التاريخية. وقد نشر أول جزء من كتاب رأس المال (*Le Capital*) سنة 1867.

وكتاب رأس المال لا يستعمل عبارة «الثقافة المادية». ولكن

نجد من دون عناء عند ماركس دعوة إلى بناء تاريخ للظروف المادية لتطور المجتمعات. وكان ماركس قد تملّى تاريخاً نقدياً للتقنيات، لأنه لا يفصل بين دراسة وسائل عمل الإنسان خلال صيرورة الإنتاج عن الإنتاج ذاته. وتنتمي العلاقات التي يربطها الإنسان مع الطبيعة إلى التحليل الماركسي كما هو الشأن بالنسبة إلى علاقات الإنسان بالإنسان. ولهذا كان على المؤرخين الماركسيين أن يتعرضوا حتماً للثقافة المادية وإبرازها من خلال بحوثهم للتأكد من متانة التحليل الماركسي عند تطبيقه في مختلف الحالات الماضية. وحتى وإن غابت جزئياً عن الماركسيين أو إن أفاضت عن الكتابة التاريخية الماركسية، فهذا لا يقلل من الدين المتخلد بالذمة تجاه المادية التاريخية.

ونتيجة لهذا الإرث، بقيت الثقافة المادية مرتبطة جوهرياً بالتاريخ. وإذا كان المفهوم الجديد مديناً لمختلف العلوم الإنسانية، فإنها وجدت ضمن التاريخ - وهنا لا تفصل عنه علم الآثار - أرضيتها المفضلة. تسير الأمور وكأن الثقافة المادية ليست هنا سوى أداة نظرية ضرورية وفاعلة، وهو ما قد يسمح بالاستغراب، لأنها ليست أقل أهمية بالنسبة إلى الإثنولوجيا. وقد يكون من المبالغة أن نؤكد أن الإثنولوجيا تجهل ذلك. إن الحقل الذي هو حقلها هو حقل تناولته الأنثروبولوجيا الثقافية الأنجلوسكسونية بإطناب، والمصطلح في حد ذاته قد برز في الإثنولوجيا كمركز الإثنولوجيا الفرنسية مثلاً.

كما لا يمكن أبداً أن نتجاهل البحوث التكنولوجية لأندريه لوروا - غورهان الذي تبدو أعماله كأنها أساسية في بناء تاريخ للثقافة المادية. وهذا له دلالة لأن أندريه لوروا - غورهان مختص بإثنولوجيا ما قبل التاريخ. ولكن يبقى أن الإثنولوجيا في فرنسا خاصة، منذ عهد مارسيل موص، وأكثر من ذلك تحت تأثير البنيوية، قد انخرطت في

دراسة ظواهر البنى الفوقية، وأولت عناية خاصة بالرموزيات، والتمثيلات الذهنية، كالسحر، والهة، والأساطير، والنسب. ووجدت الثقافة المادية نفسها في مرتبة الأعمال التهيئية ذات الطبيعة التحليلية والوصفية الصرفة للإثنوغرافيا. ولم تجد مكاناً في الأعمال التوليفية الإثنولوجية، إلا ربما في حالات استثنائية. إنها لم توجد بكثرة في توليفات المؤرخ، فهو لم يتعمّد بعد على فصل إعداد أطاريحه عن تحليل المواد التي تساعد على ذلك، ولا عن تفريق الأشكال التفسيرية للواقع المعيش الذي تعبّر فيه الثقافة المادية عن ذاتها.

ارتباط الثقافة المادية بالتاريخ وعلم الآثار

يعتبر هذا الحقل الجديد من ضمن اهتمامات الأثريين أكثر منه من ضمن اهتمامات المؤرخين. وهو ما تشهد به معاهد تاريخ الثقافة المادية في الاتحاد السوفياتي وبولونيا حيث يكثر علماء الآثار، من دون أن يكونوا وحدهم، وهم الذين يدفعون البحث إلى الأمام. لقد كانت العلاقة واضحة في البداية، وقد رأينا ذلك من خلال قرار لينين. وإذا كان المؤرخون في الغرب يبنون العلم الجديد من خلال ممارسته، فالتقاشات التي أنتجها كان يهيمن عليها الأثريون، كما هو الشأن في إيطاليا مع أندريا كاراتيني (Andrea Carandini) ودياغو مورينو (Diego Morino) وماسيمو كوايني⁽¹⁾ (Massimo Quaini).

وقد وضعت أول افتتاحية لـ مجلة الآثار الوسيطية الثقافة المادية في مقام العلم الأول الذي يجب أن يجمع حوله أعمال الأثريين المختصين في العصر الوسيط. وفي فرنسا، وإن لم توجد بعد كراس

(1) Andrea Carandini, *Archeologia e cultura materiale: lavori senza Gloria nell'antichità classica* (Bari: De Donato, [1975]), et Diego Morino et Massimo Quaini, «Per una storia della cultura materiale», *Quaderni storici*, vol. 31 (1976).

جامعية لتاريخ الثقافة المادية، فالإدارات الأولى للبحوث التي انتسبت إلى هذا المجال داخل المدرسة التطبيقية للدراسات العليا هي إدارات علم الآثار. ويفسر نشاطها في هذا الحقل الجديد بسهولة بنوعية المصادر التي نعملها، كما أن المصادر التي من خلالها يتناول الأثريون المجتمعات القديمة هي مصادر مادية، بحيث إنه من خلال إعادة تركيب الماضي التي يقدمها الأثريون تكون المظاهر المادية للحضارات هي المتميزة بصورة طبيعية. إلا أننا يجب أن نتذكر أن علم الآثار قد بحث طويلاً وبصورة أساسية في المخلفات الملموسة عن التمثيلات الذهنية في أشكالها الدينية والفنية، وهو ما جعل علم الآثار لا يتوصل مباشرة إلى الثقافة المادية: لقد وجد أن يوجد مثال ما قبل التاريخ وتأثير تجديد العلوم الإنسانية.

ما هي الثقافة المادية؟

إذا كان لا بد من تعريف الثقافة المادية يجب في هذه الحالة الرجوع إلى الذين يستعملون هذا المفهوم وهذه العبارة أكثر من غيرهم: المؤرخون وعلماء الآثار. وسنرى أنهم لا يعطونها تعريفاً⁽²⁾ أو على الأقل تعريفاً اسماً يعبر بإيجاز وبصورة مناسبة عن معنى هذه العبارة. إنهم يصرون على استعمال المفهوم كما لو أن الكلمات التي نستعملها للتدليل عليها كافية لتعريفها من دون توضيح.

طبعي أن النقاشات في بولونيا أو في إيطاليا حول الثقافة المادية قد انطلقت من مجهود للتعريف بها، ولكن يبدو أنها آلت في النهاية خاصة إلى تحديد حقل البحوث وتحديد مشروع دراسة الحياة المادية.

R. Bucaille et Jean Marie Pesez, «Cultura materiale», dans: *Enciclopedia* (2) *Einaudi* (Torino: Einaudi, 1977-1984).

ليس من المؤكد أن فكرة الثقافة المادية واضحة: لقد عاب عليها الأثريون وقفة تعسفية في مسار حضارة كاملة. ولكن هذا حكم قاسد، لأنه لا أحد يتقي التواصل الثقافي والاجتماعي. إن المقصود بكل بساطة هو تدقيق أداة فكرية، فالتمشي الدائم للفكر هو تحديد حقول مختلفة ليتمكن بصورة أحسن من الوصول إلى الواقع.

إن مفهوم الثقافة المادية ليست له قيمة في حد ذاته، ولكنه يأخذ قيمة عندما يكون مفيداً.

ثقافة أو حضارة مادية؟

من دون أن تكون هناك رغبة في تقديم تعريف يراد له أن يكون حاسماً وعالمياً، يمكن أن نلاحظ ما تفرضه المادية مقترنة بالثقافة. إن الثقافة المادية لها علاقة بدبئية بالمعوقات المادية التي تؤثر في حياة الإنسان، والتي يجد لها الإنسان حلولاً، فهذه الحلول هي الثقافة بالضبط. ولكن ليس كل الجواب هو المعنى بالثقافة المادية. إن المادية تعني أنه في الوقت الذي تعبر فيه الثقافة بطريقة مجردة، لا تكون الثقافة المادية هي المعنية. وهذا لا يشير فقط إلى حفل التمثلات الذهنية والقانون والتفكير الديني والفلسفي واللغة والفنون، ولكنه يشير أيضاً إلى البنى الاجتماعية/الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية وعلاقات الإنتاج، وبصورة أشمل إلى علاقات الإنسان بالإنسان. إن الثقافة المادية مرتبطة بالبنى التحتية، ولكنها لا تغطيها، فهي لا تعبر إلا من خلال ما هو محسوس، أي بالأشياء ومن خلالها. ولا يمكن أن يكون الإنسان غائباً في النهاية ما دامت هناك ثقافة، لذا فهي علاقة الإنسان بالشيء (والإنسان في حد ذاته ومن خلال جسده المادي هو موضوع مادي).

ربما يجب أن نشير سؤالاً لا بد له من أن يطرح، وهو: «ثقافة

أم حضارة مادية؟». يبدو أنه يمكن أن تشكلم بلا نهاية حول التدقيقات التي تفرق بين العبارتين، وإن كان غير ثابت أنهما يعبران دائماً مفاهيم مختلفة. يمكن أن نعتبر أن مفهوم «الحضارة» أكثر شمولية، والمصطلح يستند إلى مرجعية نظام من القيم، ويفرق بين المتحضرين و«البرابرة» والبدائيين. لهذه الأسباب نحبذ عند كلمة «ثقافة» التي يمكن أن تصاغ بسهولة في الجمع من دون أن يؤدي ذلك إلى تراتب. ويمكن أن ترى من خلال اللغة الفرنسية وفي اللغة المتداولة بين الناس أن «الثقافة» و«المادية» هما كلمتان متنافرتان، في حين أن اللغة الألمانية واللغة السلافية تستعملان كلمة «ثقافة» أينما استعملت الفرنسية كلمة «حضارة»، كما أن الكلمة المقصودة قد أتت من الشرق الأوروبي: إن الثقافة المادية تبدو مكرسة بالاستعمال وبأصل المفهوم. وفي النهاية، يستعمل علماء الأنثروبولوجيا وعلماء ما قبل التاريخ كلمة «ثقافة» بسهولة، عندما يريدون التعبير عن مجموع الأشياء التي تميز مجتمعاً ما. وعلى كل حال، هناك حظوظ كبيرة في أن تكون هذه المسألة مشكلة مفتعلة، ما دمتنا، كما هو واقع، نعطي المعنى نفسه للكلمتين، والمحتوى نفسه لحضارة مادية وثقافة مادية⁽³⁾.

الثقافة المادية والتاريخ

من الظلم والخطأ أن نكتب أن التاريخ قد أراد تجاهل الثقافة المادية لفترة طويلة من الزمن، فمئذ القرن التاسع عشر لم تُكتب أبداً (أو ليس دائماً) أبطال كورنيلي (Corneille) ولا أبطال شكسبير

Marian Serejski, «Les Origines et le sort des mots: Civilisation et (3) culture en Pologne.» *Annales économiques, sociétés, civilisations*, vol. 17, no. 6 (nov.-déc. 1962).

(Shakespeare) على طريقة معاصرينا. لذلك، وقع شيء ما، أو حدث نوع من الوعي الذي يتحمل مسؤوليته التاريخ. ويزداد الوعي حدة بالثقافة المادية التي تجعلنا نأسف لتعسف الأفلام الهوليوودية التي تنتج حول العصور القديمة، فنشعر أنه ليس ببعض المساحيق تحول نجمة سينما أمريكية إلى معاصرة لقيصر.

فصل أهمله التاريخ

إذا كان التاريخ لم يتجاهل الثقافة المادية، فهو قد أولاهها لفترة طويلة أهمية محدودة. لنتذكر التعليم الذي تلقيناه في المدرسة الابتدائية أو في المعهد الثانوي، ففي الكتب المدرسية، ومن خلال ما يقدم فيها من دروس، تعرف فترات ما قبل التاريخ بما تركته من آلات حجرية في مرحلة أولى، ثم برونزية وحديدية في ما بعد. وبعد ذلك تصبح الإمبراطوريات عناوين للفصول المتبقية، إلا أننا نجد في كتبنا المدرسية بعض الصفحات المخصصة للحياة اليومية، وفيها تحتل الثقافة المادية مكانة ما.

إن هذا ما سمح لنا بالتعرف على نبد تتعلق بالتقنيات الفلاحية الفرعونية، وبالسفن الحربية في سلامين (Salamine)، أو بلباس المواطن الروماني. وهذه الصفحات تتعلق أكثر بالعهود القديمة، وذلك ليس من باب الصدفة، ففي العهود القديمة نتعامل مع أزمنة ساحقة حتى إن المؤرخ يتناولها بطريقة قريبة من طريقة الإثنوغرافي في تناوله الشعوب الغريبة من خلال اللباس والتغذية والتقنيات، كما يتناولها من خلال المعتقدات والعادات. كما أن الحضارات القديمة ليست منبثرة لنا إلا من الآثار، والآثار بطبيعتها تعني بالجوانب المادية لحياة الناس أكثر منها بالأحداث والذهنيات.

وباستثناء الفصول المتعلقة بالعهود البعيدة في الزمن، تلخ كتبنا

المدرسية عرضياً على ذكر الطواحين المائية، وأطواق الحجر، ودقة سفينة النقل، واختراع غوتنبرغ (Gutenberg)، والطلاء الخزفي لبرنار باليسي (Bernard Palissy)، وقهوة مدام دو سيفيني (Madame de Sévigné)، وحشية نيكو (Nicot)، ودرة بارمنتيه (Parmentier)، وصولاً إلى الآلة البخارية التي جذبت وراءها قطاراً من التقدم التقني. في الجملة، إن الأحداث المادية لتاريخ الإنسان هي أحداث خيالية، فبرنار باليسي حسبما يبدو كان يتقن الإشهار لشخصه أكثر من إتقانه طلاء الخزف. ونعرف أيضاً أن بارمنتيه لم يدخل البطاطا إلى فرنسا، فقد اكتفى بالافتخار بأنه قد استخرج منها دقيقاً يمكن أن يخبز، ولكنه في الواقع فشل في ذلك.

دراسة متروكة للمبحرين في العلوم بالجهات

يعكس تدريس التاريخ، بنوع من التأخير كما هو الشأن دائماً، ما تتوصل إليه البحوث الجامعية والأوساط العالمية: من ذلك تاريخ لافيس (Lavissee)، وسانيوبوس (Seignobos)، ومجموعات غلوتز (Glotz) أو هالفين (Halphen)، وسانيك (Sagnac)، تلك البحوث التي تبني التاريخ الوقائعي. وكانت الثقافة المادية محشورة في باب أعاجيب البازار التاريخي التي تركت للمبحرين في العلوم بالجهات والهوة الذين ليست لهم مطامح. وعلى رغم ذلك ظلت الثقافة المادية تتقدم في الدرجات السفلى للعلوم. ويعرف الأثري الوسيط أنه لا ينتظر الكثير من الكتب المدرسية والأطروحات التي حررت في النصف الأول من هذا القرن، حتى تلك التي حررت في الآثار الوسيطية - نذكر في هذا الباب كميل إنلارت (Camille Enlart) - فهو يعرف أنه في مجلات الجمعيات العالمية قد يجد بحثاً لا يستهان بها، فهي الوحيدة التي تعنى بالخزف الوسيط، والتي توجد ضمن هذا النوع من المنشورات.

ولكن يجب ألا ننسى علماء لهم بعض من الأهمية، فجلبهم ينتمي إلى الأجيال السابقة لفترة تعقيم التاريخ من طرف الجامعيين، وهم في كثير من الأحيان من الباحثين الذين ظلوا شديدي الالتصاق بالمصادر، وفي أغلبهم من المختصين في علم الوثائق أو أساتذة في مدرسة علم الوثائق: جول كيشيرا (Jules Quicherat) مؤرخ اللباس (1875)، وليوبولد ديليل (Léopold Delisle) مؤرخ الفلاحة (1851)، وفيكتور غاي (Victor Gay) مؤلف قاموس أنري نادر للعصر الوسيط، وأيضا دواي دارك (Douët D'Arcq)، وجول فينو (Jules Finot)، وآل بروست (Les Prost). ولكن يحق أن نضع ميشليه في المرتبة الأولى، فقد كان مهتماً بظروف الناس، حتى إنه لم يتناس الحياة المادية، وفيوليه لو - دوك (Viollet-le-Duc) الذي طالما احتقرنا عمله بعنوان: قاموس للآثار الفرنسي.

مدرسة «الحوليات»

لم نسجل ما بين الحربين خارج «مدرسة الحوليات» إلا بعض الباحثين المتميزين مثل الضابطين برتية رائد: كينيدي (Quenedy) ولوفيفر دي نوات⁽⁴⁾ (Lefebvre des Noettes). ولكن كل ذلك تغير مع «مدرسة الحوليات»: لقد وسعت كثيراً في حقل المؤرخ، وخاصة عندما أدخلت في اهتماماته الثقافة المادية. لقد تم اكتشاف المشهد الريفي مع مارك بلوخ، وبالتالي اكتشاف جموع الفلاحين الذين صنعوه، وفي الوقت نفسه تم الاهتمام بالتقنيات الوسيطة،

Raymond Quenedy, *L'Habitation rouennaise: Etude d'histoire, de (4) géographie et d'archéologie urbaines* (Rouen: Lestringant, 1926), et Lefebvre des Noettes, *L'Attelage: Le Cheval de selle à travers les âges: Contribution à l'histoire de l'esclavage*, préface de Jérôme Carcopino, 2 vols. (Paris: Picard, 1931).

مثل الطاحونة المائية والركاب والمحراث⁽⁵⁾. وإذا كان لوسيان فافر مؤرخاً للذهنيات بالدرجة الأولى، فقد كان متنبهاً إلى تقدم مختلف العلوم الإنسانية، وأدى اهتمامه بالإثنوغرافيا والجغرافيا إلى أخذ الثقافة المادية بعين الاعتبار، ويبدو من خلال الأرض وتطور الإنسانية كأنه مؤسس لتاريخ مرتبط بالأرض وبالوسط الطبيعي ومحيط الإنسان، وهو تاريخ قد أنجز بصورة رائعة من خلال أطروحة فرناند بروديل: المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني⁽⁶⁾ (Philippe II).

عندما كان فرناند بروديل على رأس القسم السادس في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، بحث أو شجع على القيام ببحوث كان قد بدأها مارك بلوخ ولوسيان فافر (الحياة المادية وردود الفعل البيولوجية: تاريخ التغذية وآثار قرية مهجورة). وقبل كل شيء كان أول مؤلف لأول عمل توليقي كبير حول تاريخ الثقافة المادية: الحضارة المادية والرأسمالية⁽⁷⁾. لذلك سنسأل هذا العمل عن معنى الثقافة المادية، وكيف يمكن أن يكون تاريخها.

Marc Bloch; *Les Caractères originaux de l'histoire rurale française* (5)
(Oslo: H. Aschehoug; Leipzig: O. Harrassowitz; Paris: Les Belles lettres; London: Williams and Norgate; Cambridge: Harvard University Press, 1931), et «Avènement et conquête du moulin à eau», *Annales d'histoire économique et sociale*, vol. 7, no. 36 (1935).

Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque* (6)
de Philippe II (Paris: Armand Colin, 1949).

Fernand Braudel: *Civilisation matérielle et capitalisme, XVe-XVIIIe* (7)
siècle, destins du monde (Paris: Armand Colin, 1967-), publication reprise dans le
tome 1 de: *Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XVe-XVIIIe siècles*
(Paris: Armand Colin, 1979-).

الكتل الصامتة تحتل الصدارة

لقد عاب الباحث الأثري الإيطالي أندريا كارتديني على فرناند بروديل عدم تعريف المفهوم الذي يحتويه كتابه، أو على الأقل عاب عليه تعريفه بصورة مجازية وبصور أدبية. وهذا صحيح، وخاصة أن تعابير بقلم المؤرخ الفرنسي تحتاج إلى تعريف لأنها دقيقة وبأسلوب ليس له نظير.

ولكن يجب أن نتوقف مباشرة عند العنوان الذي يجمع ما بين الثقافة المادية والرأسمالية. يجب أن نفهم بالنسبة إلى مؤلف دراسة الحضارة المادية والرأسمالية، على الأقل بالنسبة إلى الفترة المحددة (من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر)، أنها غير منفصلة عن دراسة الرأسمالية، بل ربما تكون مقترنة بها. لقد كتب جاك لوغوف: «إن العمل الكبير الذي كتبه فرناند بروديل لم يجعل الحقل الجديد يغزو حقل التاريخ من دون ربطه بالظاهرة التاريخية الصرفة، وهي الرأسمالية»⁽⁸⁾. وبالنسبة إلى بروديل تبدو الحياة المادية في الواقع كما لو أنها في الطابق الأسفل لبناية يمثل الاقتصاد الطابق العلوي منها. وهنا يبدو كما لو أن هناك تصغيراً لحجم تاريخ الثقافة المادية التي تتساءل عنها. ولكن يجب أن نقبل بأن الحياة المادية ما تزال في احتشام على عتبة التاريخ، في الوقت الذي يحتل فيه التاريخ الاقتصادي قمة الهرم بعدما أزاح الحدث الوقائعي واحتل مكانه، أي المرتبة الأولى، في حين أن تاريخ الثقافة المادية لا يزال يبحث له عن موقع، فهو ما زال لم يبين مصطلحاته، ولم يطور كل اهتماماته.

François Furet et Jacques Le Goff, «Histoire et ethnologie» *Méthologie* (8) de l'histoire et des sciences humaines, mélanges en l'honneur de Fernand Braudel ([Toulouse]: Privat, [1973]), t. II.

كما أن فرناند بروديل يؤكد في كتابه قيمة دراسة الحياة المادية، ويعلم بذلك عن غلبة تاريخ الكتل ويقلب الأشكال المعهودة بـ «إعطاء الأولوية لهذه الكتل نفسها من خلال وضعها في موقع الصدارة»، ويفسح المجال في عمله لـ «الحركات المتكررة وللتواريخ الصامتة للناس، وهي التي كما لو أنها كانت منسية، ولواقع طويل الأمد كان له بالغ الأثر وقد ظل صدها مكتوماً».

سنحتفظ من خلال هذه المقدمات بأن تاريخ الثقافة المادية هو تاريخ أغلب الناس، وأن الحياة المادية والحياة الاقتصادية هما في الوقت نفسه وثيقتي الارتباط ومتفصلتين بما يكفي من الوضوح. وبالنسبة إلى بروديل، تتكون حياة الأغلبية من الأشياء والآلات والحركات العادية للناس: إن هذه الحياة هي التي تعنيهم في يومهم، فهي تبتلع أفكارهم وأعمالهم. ومن جهة أخرى تقرر ظروف الحياة الاقتصادية «ما بين الممكن والمستحيل».

المواضيع: الحيز والسكن واللباس

مرة أخرى يفتتح العدد كتاب فرناند بروديل: «عدد» الناس، «الحياة المادية هي الناس، والأشياء هي الأشياء والناس»، ويعني ذلك الناس أيضاً، وهو ما يجعل الديمغرافيا التاريخية جزءاً من تاريخ الثقافة المادية. ولكن منذ الحرب العالمية الثانية، تطورت الديمغرافيا التاريخية كثيراً إلى درجة أنها أصبحت علماً مستقلاً بذاته. ولكن في الحقيقة، نجد صعوبة في الفصل بين الحقلين: الجسد مع «تقنيات الجسد»، ومع الأمراض والممارسات العلاجية، إذ لا يمكن لها أن تخرج عن حقل الثقافة المادية. وتوجد على الأقل مبادلات دائمة مع الديمغرافيا التاريخية: تاريخ الثقافة المادية يعتمد على ما توفره الديمغرافيا التاريخية من معطيات، ويعطيها في الوقت نفسه ما يوفره من معطيات.

تجد أنفسنا مع «الخبز اليومي» أمام تقدم حقيقي لتاريخ الثقافة المادية. ومن غير شك أن المجاعات قد شذت لفترة طويلة اهتمام المؤرخ، أقل من أسعار الحبوب وتجارتها اللذين غديا دراسات الاقتصاديين، إلا أن الخبز اليومي يمثل شيئاً آخر بالنسبة إلى فرناند بروديل: نظام الحريرات، المائدة وآدابها ومكونات الطعام والكماليات وما هو عادي. وهذا لا يعني الخبز والخمر فقط، ولكن أيضاً موقع اللحم والسمك واستهلاك الشاي والقهوة، ومجالات استهلاك الخمر والجمعة، وانتشار الكحول والتبغ. وتضمن فرناند بروديل، عوضاً عن تاريخ الخبز والخمر، تاريخاً لـ «التمارز الغذائي على طريقة الترابط النباتي عند الجغرافيين».

أكثر من تاريخ التقنيات

في كتاب الحضارة المادية والرأسمالية احتل السكن واللباس مكاناً أقل مرتين من المساحة التي احتلتها التغذية، لأن البحوث في هذا المجال تطورت ببطء أكثر مرتبطة بمدى توفر الوثائق التي غالباً ما تكون هزلية، وكثيراً ما تهتم بالاستثناءات. ولولا التقدم الحديث الذي حققه علم الآثار، ولو أنه لا يزال محدوداً، لما تسنى لنا التعرف على سكن الفلاح الوسيط الذي يربأ المتمنم بنفسه، على ما يبدو، عن تصويره؛ وإلا سنظل على الاعتقاد بأنه يسكن في خصر، وفي أحسن الحالات في كوخ من القش، وفي أسوأ الحالات في مغارة. وهو ما يعطي للبحوث الأثرية أهميتها في تاريخ الثقافة المادية. ولكن المؤلف وضع السكن واللباس تحت راية الكمالي والعادي.

ما يهمنا هنا هو الفرق بين بيت الفلاح ومنزل البورجوازي، بين حضارات ثرية وحضارات فقيرة. يضاف بذلك بعد اجتماعي وبعد فضائي إلى بعد الثقافة المادية التاريخي والزمني. وأخيراً - وبصورة

متأخرة عما كنا ننتظره - بأنني انتشار التقنيات. إنه انتشار وليس إحداثاً: وما يهم هنا أيضاً هو الكم والديمومة، وليس ما هو استثنائي، أي ليس الحدث. ولكن أكان يمكن أن نظن تقريباً أن تاريخ الثقافة المادية يتلبس بتاريخ التقنيات؟

وإذا كان فرناند بروديل قد قال: «إن كل شيء تقني»، فقد قال أيضاً: «إن التقنية لم تكن أبداً معزولة». الحياة المادية بناء مركب لا ينحصر في التقنية، إلا في حالة بسط مفهومها بصورة غير محدودة. إن الغائب في الحضارة المادية والرأسمالية هو الأرض. إن الأرض هي أكبر معين للناس الذين يغيّرون شكلها بعملهم بصورة مستمرة.

ولكن نحن متأكدون أن فرناند بروديل لم يشأ عن ذلك عن قصد: إن الأرض والبحر يشكلان محور أطروحته: المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني. وربما توفر بلدان المتوسط المثال الحي على الأثر الذي يمكن أن يتركه الإنسان في المشهد الطبيعي، فقد لا يتعرف اليونان والرومان على هذه السواحل ذات المنحدرات العارية التي اندثرت عنها الغابات، ولا على هذه الجنان والحدائق التي تنمو فيها نباتات لم تكن معهودة في العصور القديمة، وإن كانت تبدو لنا أنها متوسطة الأصول: الحمضيات والطماطم والخوخ والتين الشوكي.

ربما لم يقدم فرناند بروديل تعريفاً ضافياً للثقافة المادية. لقد فعل أحسن من ذلك: جعلها تنبثق من تحسس التاريخ وأينتها حية في وجه النظريات العقيمة شامخة ومعقدة.

الثقافة المادية والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي

لقد تم أقدم تأقلم لمفهوم «الثقافة المادية» في أوروبا الاشتراكية، ومن هذه البلدان تلقينا أكبر نصيب منه، إلا أن تاريخ

الثقافة المادية لم يكن يُقبل هناك من دون أن يشير بعض القضايا النظرية. لقد كان تأسيس معهد تاريخ الثقافة المادية في بولونيا فرصة لإثارة نقاش مهم نجد صداه منذ 1953 في مجلة تاريخ الثقافة المادية، وليس من العسير أن نلاحظ الصعوبات التي اصطدمت بها المدرسة الماركسية: إنها تتمثل في تحديد موقع الثقافة المادية من الأمر الاقتصادي/الاجتماعي.

وليس هناك أي سبب بالنسبة إلى التاريخ الشمولي الذي نسمي إليه «مدرسة الحوليات» لطرح التساؤلات نفسها. إن الماركسيين ينظرون إليه بازدراء معتبرينه تاريخاً تجريبياً، وحتى وإن اعترفوا له بوضع أسس منهجية متقدمة، فإنهم ينزعون عنه أي محتوى نظيري. إنهم يعترفون لـ «مدرسة الحوليات» بالفضل في إخراج الثقافة المادية من العدم الذي تركها فيه التاريخ السياسي، ولكنهم حاولوا انتقاد الحوليات في إعطاء الثقافة المادية أكثر مما تستحق. ليس على التاريخ إعطاء الثقافة المادية أكثر مما تستحق بعدما كان قد احتقرها، ويبدو ذلك هو موضوع النقاش.

ولكن لنلاحظ أن التاريخ الشمولي لا يعطي الثقافة المادية مكانة هامشية، وإنما يضعها في موقع التبعية، يعني التبعية بالنسبة إلى التاريخ الاقتصادي: وهو ما نقرأه في كتاب فرناند بروديل.

ما هي أسباب هذا التوجه داخل تصور لتاريخ نقول عنه إنه تجريبي؟ ربما يكون ذلك كذلك، لأن الثقافة المادية ما تزال تجمع موادها ومن دون أن تكون بعد مهيأة للتنظيم بسهولة. وفي الوقت الحاضر، يبدو التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وحده قادراً على بناء الماضي. ولكن الأولوية التي منحت للعامل الاقتصادي لا يمكن أن تبرز، ولو كان ذلك بصورة غير معلنة، إلا بالرجوع إلى فكر يعتبر المادة منظمة بحسب نظرية: المادية التاريخية.

وإذا كان الماركسيون يترددون في إعطاء الثقافة المادية مكانتها، فذلك بسبب المادية التاريخية. إن النقاش الذي يدور في هذه الأوساط يعبر في الوقت نفسه عن الانجذاب والنفور تجاه هذا الحقل البحثي الجديد. ولكلا الموقفين ما يبرره عندهم. يوجد موقع الثقافة المادية إلى جانب البنى التحتية، إذ لا يمكن أن تتجاهل المادية التاريخية ثقل العوامل المادية، وهي التي تبحث في البنى التحتية عن العوامل المحركة للتاريخ. ولكن يعتبر منح تاريخ الثقافة المادية موقعاً مستقلاً مجازفة تمثل في تمكين موضوع البحث الذي يتناوله بالدرس القيمة نفسها التي يولها للظواهر الاجتماعية، وما يمكن أن يكون أكثر خطورة هو القول بوجود أحداث تاريخية غير اجتماعية، وتفسير الظواهر الاجتماعية بظواهر خارجة عن نطاق الاجتماعي.

الظروف المادية ليست أسباباً

لقد تبين للمؤرخين الماركسيين أنه يمكن دراسة الثقافة المادية من دون إيجاد وساطة بين ما هو اجتماعي وما هو تاريخي، ومن دون تقديم تفسير مبني مثلاً على تطور المادة والطاقة. وهذا يعني أنه يجب أخذ الظروف المادية التي تتطور ضمنها العلاقات الاجتماعية بعين الاعتبار، وتبين وسائل الإنتاج من خلالها من دون إعطائها قيمة سببية. لنقل كما قال فرناند بروديل في موازنة «الممكن والمستحيل»: ليس البحث في «لماذا» و«كيف».

يشكون الحقل الجديد بالنسبة إلى ألكسندر غيزستور (Aleksander Gieysztor) من «وسائل الإنتاج، وفي الوقت نفسه من وسائل العمل والمواد المصنوعة والقوى المنتجة والمنتجات المادية التي يستعملها الإنسان». في الجملة، وكما نرى ذلك، يتضمن هذا الرأي كل ما يتعلق بالإنتاج، وليس بالإنتاج نفسه. ويستعير ألكسندر

غيزستور من هنري دوناجفسكي تحليلاً له ميزة أنه حصر مكونات الثقافة المادية في أربعة عناصر:

- 1 - وسائل العمل (الإنسان والآلات).
- 2 - موضوع العمل (الثروات المادية والمواد الأولية).
- 3 - تجربة الإنسان خلال صيرورة الإنتاج (التقنيات).
- 4 - استعمال المنتجات المادية (المستهلكون).

وميزة تحليل جيرزي كولتزيسكي (Jerzy Kulezyski) أنها أكثر بساطة ودقة في تأكيدها على ثلاثة مكونات، هي: الطبيعة، والإنسان، والمنتوج، ومن غير شك في علاقتهم بالإنتاج، وحقل تاريخ الثقافة المادية بالنسبة إلى كولتزيسكي هو:

1 - وسائل الإنتاج المأخوذة من «الطبيعة»، وكذلك أيضاً «الظروف الطبيعية» للحياة والتغييرات التي أدخلها الإنسان على «الوسط الطبيعي».

2 - قوى الإنتاج، أي وسائل العمل، الوسائل «البشرية» للإنتاج، و«الإنسان» نفسه بما له من خبرة وتنظيم في العمل.

3 - «المنتجات» المادية التي تم التحصل عليها بهذه الوسائل. وهذه القوى، أدوات الإنتاج والمنتجات المعدة للاستهلاك، سواء.

إن مثل هذه التحاليل تحدد بوضوح الموقع الذي يجب أن تحتله الثقافة المادية في البناء التاريخي. إنها تؤكد على أهمية دراستها بالنسبة إلى المؤرخ الماركسي. ونتوقع بعد ذلك أن ترى الثقافة المادية تتدخل في مختلف نصورات الصيرورة التاريخية التي تنتسب إلى الماركسية. ونلاحظ أن شيئاً من ذلك لم يحصل، إلا من خلال طابع بعض التقنيات - التي تمت معالجتها تحت عنوان الاقتصاد -

ومن خلال طابعها الديسغرافي. وهي لا تؤدي أي دور في نظرية النظام الفيوذالي الاقتصادية⁽⁹⁾ لويتولد كولا (والذي بذل جهداً كبيراً لتطوير تاريخ الثقافة المادية)، ولا أكثر من ذلك في نموذج نمط الإنتاج الفيوذالي الذي تقترحه أزمة النظام الفيوذالي كما يراها غي بوا⁽¹⁰⁾. ولا ننكر على المؤرخين الماركسيين دورهم في استكشاف الحقل الجديد، ولكن ذلك تم كما لو أنه بقي خارجاً بعض الشيء عن مشروعهم. ومن المتفق عليه مسبقاً أنه يجب البحث عن معاني الجوانب المادية داخل العلاقات الاجتماعية. ومن هذا المنطلق، وقع الاتفاق على أن الحدث الاقتصادي الاجتماعي يعبر عن ملامح الثقافة المادية، وليس العكس. لذلك يصبح هذا الحقل بلا جاذبية بالنسبة إلى الذي لا يرى في التاريخ إلا بلورة لنظرية تطور المجتمعات.

الثقافة المادية وتاريخ التقنيات

يبدو أن التقنيات التي لا تفصل عن العمل، وعن فعل الإنسان في المادة، تنتمي إلى حقل الثقافة المادية. ولكن يبدو أنه يمكن أن نحدد في هذا المضممار موقفين متعارضين بشدة: أحدهما يقضي بإقصاء تاريخ التقنيات، والآخر يحصر تاريخ الثقافة المادية في تاريخ التقنيات. وفي الواقع أنه لم يتم التعبير عن أي من الموقفين بوضوح من طرف أحد، ولكنهما ضمنيان في بعض المواقف.

Witold Kula, *Théorie économique du système féodal: Pour un modèle de* (9) *l'économie polonaise, 16e-18e siècles = Teoria ekonomiczna ustroju feudalnego, civilisations et sociétés*, 15, traduit du polonais; préface de Fernand Braudel, éd. revue et augmentée (Paris: La Haye: Mouton, 1970).

Guy Bois, *Crise du féodalisme: Economie rurale et démographique en* (10) *Normandie orientale du début du 14e siècle au milieu du 16e siècle*, cahiers de la fondation nationale des sciences politiques, 202 (Paris: Presses de la fondation nationale des sciences politiques, 1976).

الموقف الأول: رفض تاريخ التقنيات

الموقف الأول هو موقف الرفض، ويبدو جلياً من خلال تخوفات بعض المؤرخين الماركسيين من التقنيات. وليس هناك ما يشير الاستغراب من هذا التخوف الذي يلتقي مع النقد الذي وجه إلى تاريخ الثقافة المادية الذي يراد له أن يكون مستقلاً. إن التكنولوجيا، إذا لم يقع التحكم فيها، يمكن لها أن تحيد باستمرار عن مسارها، ويمكن أن يعطى لها دور حتمي وسبي في الصيرورة التاريخية. لقد واكبت المجتمعات الفيودالية بعض التكنولوجيات، مثل تكنولوجيا الأسلحة، وأكثر من ذلك الخيالة الثقيلة التي تعتمد على زراعة الحنطة، وعلى اعتماد الحداثة والركاب. لقد وفر الجواد للأستقراطية العسكرية تفوقاً حاسماً، وتطلب في الوقت نفسه تربية مناسبة، وطور مواقف نفسية مميزة. وهذا ما يتطلب امتلاك إمكانيات كبيرة توفر فائضاً هاماً معداً للعناية بالجواد وبالفارس الممحوض للتمرن وللفروسية والصيد والمبارزة. متى كان الجواد هو الذي يصنع الفارس؟ قد يكون ذلك، ولكن هل يصنع الفيودالي؟ إن قبول هذا الرأي، وفي هذا الشكل الكاريكاتوري، يؤول إلى السكوت عن ظروف أخرى، اقتصادية خاصة، هي من خصائص الفيودالية. ولكن الرغبة في ذلك موجودة، وقد خطى بعض المؤرخين المختصين في تقنيات الماضي الخطوة الفاصلة بين الاجتماعي والتقني.

ولكن، ومن دون تحيز، يمكن طمأنة العقول. مرة أخرى، إن تاريخ الثقافة المادية يدرس الظروف بمعنى «الإطار المادي»، وهو ما لا يعني الأسباب بالضرورة. وليس من المؤكد أنها تكون «إمكانية». ولكي تتوفر إمكانية ثورة اقتصادية لا بد من أن تكون التقنيات الضرورية جاهزة ومهيأة للتواصل، فهذا أمر بديهي. ولكن التطور التقني لا يخضع إلا لقوانين داخلية قد ينتج التقدم من خلالها تقدماً

آخر: إنه يستجيب أساساً لطلبات خارجة عنه تأتي من الاقتصاد وتعتبر عن حاجياته.

قد يكون هناك سبب آخر لرد الفعل السلبي الذي يحدثه تاريخ التقنيات. ويمكن أن نساءل: هل إذا لم يكن هناك اعتراف بالعجز، لا ترعب التقنية المؤرخ بالتخصص الدقيق الذي تستوجه؟ بالنسبة إلى المثقف، ليس من السهل ولوج عالم الحرفيين والميكانيكيين، حتى وإن كان ذلك يعني العهد ما قبل الصناعي. ويعرف الأثريون هذه الصعوبات التي تعترضهم، حتى عندما يتجهون إلى حرفة مهما كانت بسيطة (في الظاهر)، مثل الخزاف: ليس هناك إجماع حول التقنيات التي استطاعت أن تعطي هذه الخاصية أو تلك لوعاء ما، خاصة لونه أو طبيعة الطين الذي صنع منه. لقد كتبت كثير من الحماقات حول ريشة الرسم والألوان وتقنيات الرسم عند الرسامين المجدولين الذين تركوا بصماتهم في إبداعات الفن الصخري. كيف يمكن إذن للمؤرخ أن يفتحهم ميادين شديدة التنوع، كالبناء، والنسيج، والغلاحة، والملاحة، والحدادة، والصناعة...؟ سؤال يستحق الطرح. قد يكون من السهل وغير النافع أن نقر بعجزنا. إنه من المؤكد أن العمل الدؤوب لا يسمح بتجاوز العقبة. إن العمل الجيد الذي قام به أندريه لوروا - غورهان في كتابه: التطور والتقنيات⁽¹¹⁾ يبدو من الصعب إعادة مثله. ثم - وليس ذلك تقليلاً من شأنه، وإنما تدقيق له - ألم يتوقف المختص الكبير في ما قبل التاريخ عند التقنيات البسيطة نسبياً في الحضارات التي تسمى تقليدية؟ إن التاريخ لا يتوقف عند عتبة الثورة الصناعية.

André Leroi-Gourhan, *Evolution et techniques, sciences d'aujourd'hui*, (11)

2 vols. (Paris: Albin Michel, [1943-1945]), vol. 1: *L'Homme et la matière*, 1943 et 1972, vol. 2: *Milieu et techniques* (Paris: Albin Michel, 1945; 1973).

أما الجواب، فهو شديد الوضوح: ما يعجز عنه الفرد تستطيع إنجازها المجموعة. إنها مسألة تخصص وعمل جماعي. ثم هل يترك تاريخ التقنيات، بسبب صعوباته، للتقنيين، كما ترك تاريخ الفلسفة للفلاسفة، أو تاريخ العلوم للمختصين فيها. سيكون التاريخ رابعاً إذا لم ينحصر في خطاب يجعله مقصوداً على رواية جافة.

الموقف الثاني: تنحصر الثقافة المادية في تاريخ التقنيات

يقضي الموقف الثاني بإعلان، كما فعل فرناند بروديل - ولكن مع بعض التدقيق والندم الذي نعرفه - «أن كل شيء هو تقني». وهذا أمر غير مقبول إلا في إطار توسيع غير محدود لمفهوم «التقنية». إن التقنيات ليست إلا مظهراً من مظاهر الفعل البشري في الثقافة المادية: أي تجربة الإنسان في العمل، فهو مكون من مكونات الثقافة المادية، وليس كلها. وقد يكون مؤسفاً، لأن ذلك يحرمنا من وسيلة مناسبة لتعريف الثقافات المادية من خلال مستوياتها التقنية. وبذلك يعدّ عمل أندريه لوروا - غورهان دليلاً ثميناً، ويعتبر معياراً ضرورياً لمقاييسنا، فبعنوانه: التطور والتقنيات (الإنسان والمادة والوسط والتقنيات)، وبمحتواه الذي اندمج فيه حقل الثقافة المادية إلى حدود الاستهلاك، يستحضر بقوة المواقف التي تستوجب ضم الحقل الجديد إلى حقل التقنيات، حتى ولو لم يكن ذلك ما قاله المؤلف علناً. ومن الطبيعي أن يكون عالم الأنثروبولوجيا، المتعوز على تطور الآلات عبر الأزمنة ما قبل التاريخية، متحسناً أكثر للتطور التقني ويرى فيه علامة (إن لم نقل محركاً!!) للتطور الثقافي. وإذا كان مفهوم «التقدم» مقبولاً، يجب أن نقبل أن مجاله هو ميدان التقنيات. إن المختص في فترة ما قبل التاريخ يعرف أيضاً أنه منذ الإنسان الحكيم (L'Homo sapiens)، لم يتطور الإنسان البيولوجي بصورة ملموسة، أو أن تطوره كان بطيئاً بعيداً عن الملاحظة. إن القدرة

الجمعية هي نفسها التي كانت لإنسان كرو - مانيون (Cro-Magnon)، وحتى طول الحياة (وليس أمل الحياة) في عصر الحجارة لم يكن أقل أهمية منه اليوم. وحده التجهيز الآلي للإنسان هو الذي تقدم، وقد أدى تطوره بالضرورة إلى تطور الثقافة المادية بأسرها. وهو ما جعلنا نهتم بمفهوم «المستوى التقني»: إذا لم يكف هذا المفهوم لتمييز جملة من الخصائص الشاسعة التي تتجاوز التقنيات، فهو على الأقل يسمح بتعريف الثقافات المادية.

لقد عرف أندريه لوروا - غورهان كيف يبرز العلاقات التي تنشأ بين التقنيات: «لم نلاحظ أبداً أن الذي يملك المنزل يملك أيضاً الحركة الدائرية التعاقبية، وأن الذي يملك دولاب المنزل يملك الطاحونة ومخرطة الخزاف». يمثل هذا الجمع نكون على درب البنى التي يجب على تاريخ الثقافة المادية إبرازها لتقديم تناسق في مواضيع بحثها. وتؤسس هذه العلاقات لتعريف المستويات التقنية التي يرى من ورائها أندريه لوروا - غورهان درجات التطور، وهي درجات مميزة بالسيطرة على تقنيات معينة: الدرجة الأولى (الأكثر حداثة) مرتبطة بالصناعة، والدرجة الثانية مرتبطة بالجمع بين التقنيات الثلاث الكبرى: الفلاحة وتربية الماشية والتعدين، والثالثة تتميز بامتلاك واحدة من هذه التقنيات... يمكن بلا شك أن نعترض على المعايير المعتمدة، ولكننا لا نستطيع تجاهل العمل الضخم التيهيني الذي يمثل إنتاج أندريه لوروا - غورهان. إنه عمل يستحق أكثر من الصمت الذي أحيط به من طرف المؤرخين، فربما لم يكونوا مهيبين لقبوله، ولم تكن الفترة سانحة لتاريخ يهتم بالثقافة المادية.

الثقافة المادية في كتب التاريخ

إن عملاً تولى فياً، حتى وإن كان لقرون محدودة، مثل ذلك الذي قدمه كتاب فرناند بروديل الجميل، يعتمد حتماً على أعمال

جزئية عديدة. إنه يفترض تطوراً كافياً للبحث وازدهاره السريع بما أنه حفل جديد نسبياً.

بيليوغرافيا مشتتة: بحوث مشمرة

تشمل بيليوغرافيا تاريخ الثقافة المادية بعض الكتب التي يتناول كل منها جانباً معيناً: تاريخ المناخ منذ سنة ألف، والناس والطاعون، وأطلس النباتات المعاشية، والأكل في القرن التاسع عشر، والبيت في التاريخ، واللباس، وصورة الإنسان، من دون أن نتحدث عن المؤلفات التي اهتمت بتاريخ التقنيات، وهذه كتابات هي من أكثر الكتب تعبيراً وأحدث ما نشر⁽¹²⁾. ولكن يجب أن نعول أيضاً على كتب لها طابع أكثر عمومية وتهتم بالحياة المادية في فصل أو أكثر من فصولها، مثل تواريخ الحضارة، إذ يقدم كتاب: حضارة الغرب الوسيط لجاك لوغوف لوحة شاملة وقوية البناء عن الثقافة المادية للعصر الوسيط «الكلاسيكي» (من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر)⁽¹³⁾. والتاريخ الريفي الذي تعددت مشاريعه منذ مارك

Emmanuel Le Roy Ladurie, *Histoire du climat depuis l'an mil*, nouvelle (12) bibliothèque scientifique (Paris: Flammarion, 1967); Jean Noël Biraben, *Les Hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens*, civilisations et sociétés; 35-36, 2 vols. (Paris: La Haye: Mouton, 1975), vol. 1: *La Peste dans l'histoire*; Jean Jacques Hémardinquer, M. Keul et W. G. L. Randles, *Atlas des plantes vivrières* ([Paris: s. n., 1975]; Louis Henry, *Anciennes familles genevoises; Etude démographique: XVIe-XXe siècle*, [préface par Alfred Sauvy] (Paris: Presses universitaires de France, 1956); Jean Paul Aron, *Le Mangeur du XIXe siècle* (Paris: R. Laffont, [1973]); Simone Roas, *La Maison dans l'histoire, l'aventure humaine* (Paris: Albin Michel, 1976), et Yvonne Deslandres, *Le Costume, image de l'homme, l'aventure humaine* (Paris: Albin Michel, 1976).

Jacques Le Goff, *La Civilisation de l'Occident médiéval*, collection les (13) grandes civilisations; 3 ([Paris]: Arthaud, 1964).

بلوخ لا يتوانى عن دمج الثقافة المادية عبر دراسة المجال والنباتات المزروعة، وآليات الفلاحة وتقنياتها، ولكن نقدّر أنها تعنى أكثر وبصورة أساسية بإبراز العلاقات الاجتماعية⁽¹⁴⁾. ويجب أن نعطي على عكس ذلك وضعاً مميزاً للكتب التي تحمل عنوان: الحياة اليومية، وهو عنوان لسلسلة قديمة لا تزال حيويتها ثابتة. إن مفهوم «الحياة اليومية» هو من أكثر المفاهيم غموضاً، وفي كل الحالات فهو شديد الغموض حتى يسمح للمؤلفين بأن يدخلوا في تخطيط أعمالهم جزءاً كبيراً من المعرفة التاريخية، ولكن بظل الحدث التاريخي في النهاية هو الغائب الوحيد.

استفادت هذه الكتابات في الوقت نفسه من تقدّم بحث لم يعد يعطي حظوة للحدث، وأصبح منفتحاً على الثقافة المادية. وتحسّن المنتج كثيراً مع تقدم الزمن: تخلى عن الطرفة، ولم يعد يتغذى من المصادر الأدبية فقط. ويمكن أن نقيس المسافة المقطوعة بمقارنة كتاب: الحياة اليومية في زمن جان دارك، بالكتاب الأخير لفيليب كونتامين⁽¹⁵⁾.

مكتسبات كثيرة

كان الاستقبال المدفوع بتيار الإيكولوجيا استقبلاً حاراً، ذاك

Georges Duby, *L'Economie rurale et la vie des campagnes dans l'occident médiéval*, collection historique, 2 vols. (Paris: Editions montaigne, 1962); Georges Duby et Armand Wallon, dir., *Histoire de la France rurale*, collection l'univers historique, 4 vols. ([Paris]: Editions du seuil, 1975), et Robert Fossier, *Payans d'occident: XIe-XIVe siècles*, l'histoire, 48 (Paris: Presses universitaires de France, 1984).

Philippe Contamine, *La Vie quotidienne pendant la guerre de cent ans*: (15) *France et Angleterre, XIVe siècle*, la vie quotidienne ([Paris]: Hachette, 1976).

الذي خصت به اليوم أعمال مثيرة وشريفة، نشرت في بعض الأحيان في السلسلة نفسها، وأعادت تركيب حياة الفلاحين في مختلف مظاهرها بما فيها المظاهر المادية⁽¹⁶⁾. هل ما زال ذلك يعني تاريخاً أم أنه إثنوغرافيا (أو ربما «إثنوغرافيا ذاتية»)؟ لا يهم ذلك بما أن المؤرخ إذا أراد الغوص في الحياة المادية عليه أن يتحول إلى إثنوغرافي، ويؤكد كتاب: مونتايو، قرية أكسيثانية من 1294 إلى 1324 الذي ألفه إمانويل لو روا لادوري على وضوح إثنوغرافيا الماضي وشرعيتها⁽¹⁷⁾. هناك كتب وفصول كتب، وعلى الخصوص مقالات: وعدد هذه المقالات كثير في مجلة: حوليات. اقتصاديات. مجتمعات. حضارة، وهي مجمعة تحت عنوان: الحياة المادية والسلوكيات البيولوجية، أو هي ضمن أعداد خاصة وقع تخصيصها لـ التاريخ البيولوجي والمجتمع (آذار/ مارس - حزيران/ يونيو 1975)، وأنتروبولوجيا فرنسا (تموز/ يوليو - آب/ أغسطس 1976)، والمناخ والتاريخ (آذار/ مارس - نيسان/ أبريل 1977)، أو كذلك في: كراسات الحوليات⁽¹⁸⁾. هذه الدراسات، على كثرة عددها، قد لا تكون تاريخاً للثقافة المادية، وهو تاريخ لا يزال في حاجة إلى كتابة، ولا يزال متقطعاً في الزمان والمكان، ولم يحصل بعد على استقلالته: المؤلفون الذين يتعرضون للنقد يعرجون عليه بصورة

Pierre Jakez Helias, *Le Cheval d'orgueil: Mémoires d'un breton du pays bigouden - March al Lorch, terre humaine*, traduit du Breton par l'auteur (Paris: Ploa, 1975), et Henri Vincenot, *La Vie quotidienne des paysans bourguignons au temps de Lamartine, la vie quotidienne* ([Paris]: Hachette, 1976).

Emmanuel Le Roy Ladurie, *Montailloz: Village occitan de 1294 à 1324*, bibliothèque des histoires ([Paris]: Gallimard, 1975).

Jean Jacques Hémardinquer, ed., *Pour une histoire de l'alimentation*: (18) *Recueil de travaux, cahiers des annales*; 28 (Paris: Armand Colin, 1970).

عرضية، وبعضهم يعتبر أنه أقحم قسراً تحت راية أجنبية. ولكن، ومن خلال الجيولوجيا المشتتة يمكن أن نلاحظ بعض الدراسات المتقدمة، وبعض الفرضيات المثيرة، وبعض الرصيد من النتائج⁽¹⁹⁾.

تاريخ للأرض

إن مختلف قطاعات البحث لا تسير بالسرعة نفسها، فتاريخ الأرض ليس أوفرها حظاً على رغم أسبقيته، وعلى رغم التقاليد الجامعية في فرنسا، والتي جمعت بين التاريخ والجغرافيا. وربما كذلك أدى الوعي الذي يعدّ قديماً، بتأثير الوسط الطبيعي في المدرسة الفرنسية للجغرافيا البشرية، إلى نوع من انسداد الأفق: القدرة الجغرافية والحتمية البدائية التي تدينها اليوم معطيات التاريخ والإثنوغرافيا. ولم يكن المنزل⁽²⁰⁾ بمواده وبشكله، لا في الحاضر ولا في الماضي، في تبعية ضيقة للظروف المناخية أو الإمكانيات المحلية. لقد شيد الناس مبانيهم بالخشب في إنجلترا في العصر الوسيط في مناطق تكثرت فيها الحجارة قبل أن يكدوا في بناء منازل حجرية في مناطق تنعدم فيها مقاطع الحجارة. إن المنزل ليس فعلاً طبيعياً وكونياً بما أنه توجد شعوب تعيش في أصفاع باردة، وربما قاسية، مثل الأونا (Onas) في أرض النار (Terre de feu) أو

(19) لا بد لنا هنا أن نذكر بحوث معهد دراسات الثقافة المادية في العصر الوسيط بأكاديمية النمسا (Institut für Mittelalterliche Realien Kunde Österreichs) للعلوم ومختلف الملتقيات التي ينشر أعمالها مثل: *Adelige Sachkultur des Spätmittelalters: Internationaler kongress, krems an der Donau, 22. bis 25. september 1980*, [mit Beiträgen von Roger Sablonier [et al.]] (Wien: Verl. der österreichischen Akademie der Wissenschaften, 1982).

Amos Rapoport, *Pour une anthropologie de la maison = House Form* (20) *and Culture, aspects de l'urbanisme*; II, traduit par Anne M. Meistersheim et Maurin Schlumberger (Paris: Dunod, 1972).

الأبوريجين (Aborigènes) في تسمانيا (Tasmanie)، حيث يكتفون
بستائر تقيهم من الرياح.

وكذلك تبين أن الإجلال القديم الذي كان يكتسه التاريخ
للجغرافيا هو إجلال عقيم. ولم يؤد في كثير من الأحيان إلا إلى
إنتاج تلك الفصول الأولية التي حذت في أحسن الحالات الإطار
الطوبوغرافي لدراسة تاريخية يكون تأثير الوسط الطبيعي فيها غير
متواصل. وضد هذا «التصور الجامد لعلاقات الإنسان بالوسط» الذي
يحصر تدخل الإنسان في حدود إمكانية ضيقة، نتحدث اليوم عن
حركية المجال. ونعوض اليوم مفهوم «الوسط الطبيعي» الذي أصبح
فعلاً أسطورة بمفهوم النظام البيئي الذي أنشأه الإنسان ببطء وطوره،
من ذلك: المجال الريفي حيث أحدث تعاقب توازات مؤقتة،
وليست دائماً مستمرة في الثبات، وحتميات متعددة اجتماعية/ تقنية
وطبيعية على حد سواء⁽²¹⁾.

تناسق هذه الثبة بصورة متناقضة مع تاريخ للأرض بعيداً عن أية
أهداف إنسانية: يهدف تاريخ المناخ الذي كتبه إمانويل لوروا
لادوري إلى تحديد الوقائع من دون استباق لنتائجها على تاريخ
الناس. لقد أبرزت، من خلال تواريخ جنبي العنب، وتحركات
الجلاميد وغيرها من المعطيات غير المباشرة التي تحتويها أرشيفاتنا:
العصر الجلمودي الصغير في أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر
الذي أعلن عنه التدهور المناخي في أواخر العصور الوسطى بعد
مرحلة ارتفاع الحرارة من القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن الثالث
عشر.

G. Bertrand, «Pour une histoire écologique de la France rurale,» dans: (21)

Duby et Wallon, dirs., *Histoire de la France rurale*, vol. 1.